الأسس الاجتماعية في الخطاب التربوي الإصلاحي عند محمد عبده

الأستاذ: كعبوش أحمد

المركز الجامعي نور البشير بالبيّض

الملخص:

الدراسة تهتم بتحليل الفكر والإصلاح التربوي، فكر يستحق النظر كمؤثر في العملية التربوية والتعليمية في مجتمعنا المعاصر،لمحاولة إزالة ماهو عالق في نفوس أبناء الأمة من مفاهيم خاطئة،ترى أن العقلية العربية الإسلامية غير قادرة على الإنتاج والابتكار في ميادين الفكر التربوي،وميادين التكنولوجيا والحداثة،فمقومات الشخصية العربية الإسلامية عند البعض هي سبب التخلف وخاصة اللغة والدين ولذلك دراستنا تحاول أن توضح ماهو الثابت وماهو المتغير في بناء المجتمع وتوضح رأي المفكر محمد عبده(1849-1905) في عصر النهضة العربية الإسلامية ،نبرز دور التربية والتعليم والحفاظ على الهوية،كمصدر للاستنارة الفكرية في حاضرنا،وقوة حافزة يُستند إليها في الاندفاع نحو المستقبل،فالماضي يعد باعثا للوعي لدى الأمم من أجل تطور حاضرها،والنهوض بمستقبلها في ظل تربية وتعليم سليمتين،يحسن استخدام العقل بما يخدم خصوصيات المجتمع العربي الإسلامي.

تمهيد:

نرى أنه من المناسب تحديد العلاقة بين التربية والمجتمع، وما تقدمه التربية من إسهام في حلول الكثير من المشاكل التي يتخبط فيها المجتمع من حين لآخر،ومدى فاعلية هذه الحلول في الحفاظ على مقومات المجتمع وتماسكه في إطار هويته الاجتماعية،والتربية قد ننتظر منها الحل، ولكن في كثير من الأحيان بدل أن تقدم لنا الحلول فإنها قد تأزم الوضع أكثر،لذا فإنه على المصلح والمفكر أن يحدد

التربية التي يريدها لمجتمعه، ومدى قابليتها للتغيير نحو الأفضل،وتكون غير منفصلة عن مقومات المجتمع وتتلاءم معه،ولذلك فإنه حريّ بنا البحث في أهم الأسس التي تعد صمام الأمان نحو التغيير الاجتماعي لما يتلاءم مع متطلبات اللحظة الراهنة من كل فترة.

إذن نحاول من خلال الأسس الاجتماعية للتربية التعرف على أوجه التفاعل القائمة بين النظام التربوي والأنظمة الاجتماعية،و"دراسة الأسس التي تقوم عليها التربية تعني دراسة المسلمات والفرضيات التي تؤثر بالممارسة التربوية وتطورها كما تهدف إلى الكشف عن هذه المسلمات والفرضيات"[1].من أجل الحفاظ على استمرار الكيان الاجتماعي من جهة ومن جهة أخرى لأجل التقدم، لذلك فمن المهم التعرف على الأسس الاجتماعية التي تؤطر أهداف التربية.

فعلماء التربية يؤكدون على عاملين أساسيين وهما: ضرورة تعرف المربي على حضارة المجتمع الذي يعيش فيه، أي الصفات التي تبرز هوية المجتمع، وثانيها ضرورة وعي أفراد المجتمع وتعلمهم كيفية المحافظة على تراثهم وصيانته، على أن ذلك لا يمنع من مواكبة الركب الحضاري في مختلف تطوراته والتي لا تضر بكيان المجتمع، ومن خلال ما سبق ذكره نحاول تحديد أهم الأسس الاجتماعية التي تستند إليها التربية.

الأساس الأول: العادات والتقاليد

على التربية أن تتعرف على المجتمع من حيث مكوناته البشرية وتراثه وقيمه وعاداته وتقاليده "ذلك أن المدخل لفهم التربية ينبغي ألا يكون من زاوية الفرد وحده،أو من زاوية المجتمع مجردا عن حياة الأفراد بل انه مدخل متكامل يقوم على

[1] - إبراهيم ناصر، علم الاجتماع التربوي، ط2، بيروت:دار الجيل،عمان:مكتبة الرائد العلمية،1996،ص37.

الدراسة العضوية بين الفرد وبيئته التي تعني غيره من الأفراد وما يعيشون فيه من أنظمة وعلاقات وقيم وتقاليد ومفاهيم. فالتربية لا يمكن تصورها في فراغ،إذ تستمد مقوماتها من المجتمع الذي تعمل فيه"[1]وتعرف العادات بأنها "أنماط من السلوك التي تنتقل من جيل إلى جيل وتستمر فترة طويلة حتى تثبت وتستقر وتصل إلى درجة اعتراف الأجيال المتعاقبة بها"[2]،وعلى الرغم من أن العامة من الناس يخلطون بين العادات والتقاليد إلا أن العلماء يفرقون بينهما من حيث الممارسة ويقولون أن العادة تتعلق بالسلوك الخاص بينما التقليد يتعلق بسلوك المجتمع ككل، ومثال ذلك الاحتفال بأعياد الميلاد الخاصة والتي تعتبر عادة في حين الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف يعتبر تقليدا،فالاختلاف هنا اختلاف في الدرجة وليس اختلافا في النوع[3].

الأساس الثاني الظروف التاريخية تخلق نوع من التفاعل بين مجموعة من الأفراد.

ينبغي على التربية ألا تنعزل عن المجتمع الذي أنشئت فيه لأجل تحقيق المواءمة بين الفرد والمجتمع الذي يعيش فيه،من أجل التفاعل الايجابي بينهما "معنى هذا أن العلاقة بين الفرد والمجتمع لا يمكن دراستها على ضوء مفاهيم مجردة، وإنما على أساس تحليل موضوعي للظروف التاريخية التي هي من صنع أفراده في تفاعلات بعضهم مع بعض، وبينهم وبين عناصر بيئتهم وهذه التفاعلات والعلاقات تختلف من مجتمع إلى مجتمع"[4]، وهذا يعني أن التفاعل بين الأفراد يخلق مجالا روحيا يحس الأفراد من خلاله بانتماءاتهم،ونقصد بهذه التفاعلات مثل ما يحدث بين الأمة العربية التي ترتبط فيما بينها وتشترك في الكثير من القضايا التي يرى أفرادها أنها تخصهم

[1] - عفيفي محمد الهادي، في أصول التربية:الأصول الثقافية للتربية، مصر:مكتبة الأنجلو المصرية,197، ص 66..

[2]- ناصر إبراهيم، علم الاجتماع التربوي، مرجع سابق، ص238.

[3]- المرجع نفسه،ص. 238 .

[4]- المرجع نفسه، ص. 106.

جميعا، مثل قضية فلسطين،والتي أدت في مرحلة من مراحل تاريخها إلى محاولة تحريرها والتضحية بالنفس والنفيس،وهذا ما عبروا عنه في حربهم مع إسرائيل سنة 1973م.

الأساس الثالث: المعتقدات

تعد المعتقدات من بين أهم المحددات التي تحدد نوع التربية الواجب تقديمها للأفراد لذلك فإن المفكرين والمصلحين التربويين لا يمكنهم التملص من معتقدات المجتمع الذي يعيشون فيه وإلا فإن مشروعهم محتم عليه بالفشل،لأنه سيقابل بالرفض "أنه من أهم المسؤوليات التي ينبغي على التربية القيام بها في مجتمعاتنا العربية المعاصرة؛هي التأكيد على أن يتعرف الدارس على عقيدته الدينية"[1]، فالعقيدة بغض النظر عن مصداقيتها إلا أن لها أثر في العملية التربوية فنجد اليهود يربون أولادهم على عقيدتهم،ومن ضمن ما تهدف إليه ترسيخ في أذهانهم فكرة أرض الميعاد، والتي أدت ،إلى احتلال فلسطين، ونجد المسلمين في تربيتهم التي أساسها العقيدة الإسلامية من خلال الكتاب والسنة يهدفون إلى تأسيس مجتمع يؤمن بأن يعيش لدنياه كأنه يعيش أبدا وإلى آخرته كأنه يموت غدا، في ظل عقيدة التوحيد التي تؤمن بأن الله واحد وله الخلق كله من قبل ومن بعد. فالعقيدة دائما حاضرة في تربية المجتمع لتنعكس في سلوكياتهم وأعمالهم.

الأساس الرابع: اللغة

هناك أساس مهم يوطد العلاقة بين أفراد المجتمع الواحد، ويساهم في نقل التراث من جيل إلى جيل إنها اللغة التي تعتبر أداة لتكوين الذات وتدعيم التراث، لذلك؛ فإنه للغة دور في "توثيق العلاقة بين الفرد ومجتمعه وأداة لتكوين الذات

[1]- االشبيني محمد، أصول التربية :الاجتماعية والثقافية والفلسفية، القاهرة :دار الفكر العربي، 2000، ص35.

وتدعيم التراث: التربية كضرورة لبقاء المجتمعات واستمرارها فإننا نجد أنفسنا أمام أداة رئيسية تعمل على توثيق العلاقة بين الفرد ومجتمعه"[1]،واللغة تعتبر من السمات الأساسية للمجتمع"فاللغة من أهم أدوات التبادل الفكري حيث ينقل الأفراد ويتبادلون بواسطتها معاني سلوكهم والأشياء والأدوات التي يتعاملون بها وبواسطتها...وبذلك يتحقق للمجتمع الحركة والتغير من أجل تحقيق التماسك"[2]. لذلك نجد أن الدول منذ القديم تحاول الحفاظ على لغة المجتمع والأمة لأن استمرارها مرهون به استمرار تماسك المجتمع، لذلك فإن كل دولة تسعى إلى فرض لغتها في أنظمة التعليم، وهذا ما نجده في الجزائر بعدما حصلت على استقلالها من فرنسا فإنها شرعت في تطبيق التعريب على مراحل التعليم، والإقرار في الدستور بأن لغة الجزائر الأولى هي اللغة العربية.

الأساس الخامس: تحديد الحقوق والواجبات بين المجتمع والفرد.

كذلك من بين الأسس التي يمكن الإشارة إليها، والتي من واجب الفرد التعرف عليها هي مساعدة الفرد في التعرف على الحقوق والواجبات التي يضعها المجتمع لمواطنيه، فعلى الفرد أن يعرف ماله من واجبات وما عليه من حقوق. وهذه الفكرة أكد عليها الإمام محمد عبده في توعية المجتمع بأن يتعرف الفرد على ما يتيحه له نظام مجتمعه من حقوق وما عليه تأديته من واجبات، وذلك كله من أجل ضمان انسجام أفراد المجتمع مع النظام الخاضعين له.

الأساس السادس: الطبقية الاجتماعية :يمكن اعتبار الطبقية الاجتماعية من بين الخصائص التي يتميز بها المجتمع في تكوينه والتي أعطى لها الفلاسفة والمفكرين

[1]- مرجع سابق،ص36.
[2]- عفيفي، محمد الهادي، في أصول التربية، مرجع سابق، ص108-109.

اهتماما كبيرا في تحديد طبيعة الإنسان، وفي أن المجتمع ليس من معدن واحد، ومثل ذلك ما نجده في تقسيم المجتمع عند اليونان، والطبقة هي "فئة كبيرة من الناس في مجتمع معين تتميز بمركز اجتماعي واقتصادي واحد بالنسبة للفئات الأخرى في المجتمع نفسه، وتكون هذه الفئة متشابهة مع بعضها البعض وبين أفرادها في التعليم والحالة الاقتصادية والمراكز الاجتماعية ،وفرص العمل والحياة"[1].

تتكون الطبقة الاجتماعية من الناس الذين يتساوون نوعا وكما في فرص التمتع بالمنتجات الصناعية وظروف الحياة العامة واختيارات الحياة الشخصية،وتعني مجموعة من الأفراد في مجتمع يقبلون بعضهم كمتساوين على أساس التشابه بينهم في نمط العيش والسلوك،والممتلكات (الثروة)ونوع العمل،ومركز الأسلاف الاجتماعي، ومقدار أو درجة الدراسة، وغير ذلك من المميزات التي تضيف قوة إلى نفوذ الفرد، ويمكن الانتقال من طبقة إلى أخرى،خلافا للنظام الطبقي المتحجر الذي لا يسمح بالانتقال من طبقة إلى أخرى.[2]ونقصد بأن هذه الخلفية الطبقية هي التي تصنع فكر تربوي معين، فمثلا أفلاطون عندما أقام مشروعه الإصلاحي فإنه بناه على نظرة طبقية، ثم حدد لكل فئة من المجتمع التربية التي تناسبها.

هذه هي الأسس التي يتميز بها مجتمع عن غيره، وتحدد زمرته،وهذه هي معالم هوية مجتمع يسعى للحفظ على كيانه، وهذه هي الروابط التي تحدد العلاقة بين الأفراد داخل المجتمع، إذن لكل مجتمع محددات تجعله يتكتل ويشعر أفراده أن هناك قسمات تجعلهم كيان واحد وهذا ما نجده في الأمة العربية والإسلامية، ونجده عند دول أوربا واللذين يشكلون اتحادا أوربي اقتصاديا، ينتمي إليهم من يسلم بمحددات

[1]- ناصر إبراهيم، علم الاجتماع التربوي،.مرجع سابق، ص269.
[2]- نجار فريد، المعجم الموسوعي لمصطلحات التربية.ط1، بيروت:مكتبة لبنان ناشرون،2003، ص930.

هويتهم، ومن يتنازل لهم عن خصوصياته لأجل خصوصيات يحددها الكيان الأوربي، وهذا ما يجعل دولة مثل أنقرة اليوم في مفترق الطرق بين الحفاظ على مقوماتها أو التفريط فيها لأجل الانضمام إلى الإتحاد الأوربي.

الأبعاد الاجتماعية للتربية:

بعدما تكلمنا عن أهم الأسس الفلسفية والاجتماعية التي تبنى عليها التربية، فإننا الآن نحاول تقديم نظرة موجزة عن أهم انعكاسات تلك الأسس على المجتمع، وبالتالي عن أهم الطموحات التي يصبوا نخبة المجتمع في غرسها في النشء من خلال التربية لتغيير بعض السلوكيات التي أدت إلى تخلف المجتمع، أو لمحاربة الثقافة الدخيلة على المجتمع التي تحاول طمس هويته،وباعتبار التربية عملية اجتماعية"فإنها تعد صورة لحياة المجتمع الذي تعيش في إطاره،تعكس فكره الاجتماعي،وتشيرإلى مدى نموه وتطوره وتحدد درجة تطلعه وطموحه"[1].

أما عن أهم الأبعاد الاجتماعية للتربية العامة التي يمكن الخروج بها من خلال العلاقة التفاعلية بين التربية والمجتمع رغم الاختلافات المتضمنة داخل كل بعد تربوي، فإننا نجد أن:

1- الوجهة الاجتماعية لفلسفة التربية:

.بمعنى أن التربية تربط بين الفرد والمجتمع لتصنع جسر التواصل بينهما من أجل دمج الفرد في المجتمع، أو من أجل "تحديد دور الفرد وفاعليته في دعم هذا النظام أو إعاقة حركته"[2].

[1] بركات أحمد لطفي، في فلسفة التربية، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1978، ص.28 .
2-المرجع نفسه

2- أثر الواقع الاجتماعي في فلسفة التربية:

أي أن فلسفة التربية تستمد أفكارها من المجتمع "ذلك أن الواقع الاجتماعي إنما يشتمل على مركب كبير من القيم الإيجابية والسلبية، وهذا يجعل عملية التمييز والاختيار هي المجال الذي تستمد منه فلسفة التربية أصولها وأهدافها"[1].والاهتمام بالثقافة كوظيفة أساسية للتربية، من أجا استيعاب ثقافة المجتمع ونقلها للأجيال من أجل خلق الانسجام داخل المجتمع[2].

3- التربية وترقية الحياة:

بمعنى أن التربية لها أهمية في حياة الفرد والمجتمع، ويرى هربرت سبنسرمن خلال المذهب النشوئي الارتقائي الذي كان يميل إليه أن الأهداف التي تسعى إليها التربية في حياة الفرد والمجتمع تكمن في :

- تعليم فن الحفاظ على الذات
- تعليم المرء كيف يكسب قوته وعيشه
- تعليم الفرد فن البقاء من خلال معلومات يعرفها عن تنشئة الأطفال وتربيتهم
- تهيئة الفرد لواجباته السياسية والاجتماعية من خلال الثقافة والفنون والآداب وغيره[3]

4 – تكوين الفرد الصالح:

نجد في التربية الإسلامية أن تربية الفرد الصالح توفق بين الدنيا والآخرة، يقول الله سبحانه وتعالى: ((وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من

1 -المرجع نفسه
2- العبادي، نذيرسيحان، أسس التربية، مرجع سابق، ص.175.
3- مرسي محمد منير، فلسفة التربية:اتجاهاتها ومدارسها، مرجع سابق،ص 109-110

الدنيا))[1].فأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نمشي في الأرض ونبتغي من فضله، وعلى الإنسان ألا يجعل من الدنيا مبلغ همه[2].

هذه هي أهم الأبعاد الاجتماعية للتربية، التي يمكن الاستناد إليها في وضع خطط تربوية ناجحة تهتم بمقومات المجتمع، وفي الفصل الموالي، سيكون الباب مفتوحا من أجل التعرف عن أهم الأسس الاجتماعية التي استندت إليها النخب في تفكيرها السياسي والاجتماعي من خلال الفكر الذي ساد النهوض العربي والإسلامي بعد صدمة الحداثة لأجل عبور هوة التخلف في مقابل الغرب المتطور، فهل يكون بتقمص شخصية الغرب أم يكون بإعادة النظر في تاريخنا والنقطة التي انحرف فيها المجتمع العربي والإسلامي، في ظل المحافظة على مقومات الأمة.

الأسس الاجتماعية في الخطاب التربوي الإصلاحي عند محمد عبده:

المشكلة الأساسية التي تشغل بال المفكر في حال الأمة، هي كيف نبلغ التطور الحضاري التي بلغته الدول الغربية المتطورة،، في ظل المحافظة على هويتها والمقومات التي اكتسبتها عبر التاريخ، الضاربة جذورها في أعماق الماضي، بما فيها من تصدي للغزو الثقافي المتواصل التي تصدرها لنا الدول الغربية؟.وبعبارة أخرى هل التربية يمكنها أن تصبح أداة فعالة في إدخال التغيير المطلوب لمعاونة المجتمع على النهوض والتطور؟ بحكم أن أي تنظير لأهداف تربوية فإن المجتمع هو خلفيته لتحقيق أهداف التربية لوضع فلسفة تربوية على أسس معينة.[3]

[1]- سورة العنكبوت، الآية 77.
[2]- أحمد فؤاد عبد الفتاح، في الأصول الفلسفية للتربية عند مفكري الإسلام، مرجع سابق، ص.63.
[3] - محمد لبيب النجيحي، الأسس الاجتماعية للتربية، مرجع سابق، ص. 54

الواقع أن لكل مجتمع خصائصه التي تميزه عن المجتمعات الأخرى،وكل غيور عن مجتمعه، يسعى للحفاظ على مقومات مجتمعه،لذلك نجد محمد عبده من الساعين للحفاظ على مقومات المجتمع العربي والإسلامي، مع العمل من زاوية أخرى لبلوغ التطور الذي بلغته الأمة الغربية، لذلك فقد سعى من خلال مشروعه التربوي لبناء نسق تربوي يسعى من خلاله لتهيئة الظروف المناسبة لبلوغ لب العوامل المساعدة على التطور، وليس قشور التطور، لأن "الواقع في المجتمع المصري والعربي له خصوصياته التي تميزه عن باقي المجتمعات، وإن كانت له أيضا مميزات يشترك فيها مع مجتمعات أخرى مثل المجتمعات ذات الثقافة الإسلامية والشرقية. ومن البديهي والمنطقي أن يكون الفكر النظري المقدم في المجتمع معبرا لأقرب درجة ممكنة عن طبيعة واحتياجات ذلك المجتمع."[1]

فللتربية الأثر الفعال في ترسيخ هوية المجتمع في الأجيال المتعاقبة، ولذلك تسعى المجتمعات للاهتمام بالتربية وتحديد أهدافها بما يخدم مقومات المجتمع، ومن الأمور التي سعى إلى تحقيقها الإمام في مشروعه التربوي، هي الدعوة لأهم الأسس التي تضمن بقاء وثبات هوية المجتمع، مع الدعوة إلى قبول علوم الغرب التي تخدم المجتمع العربي والإسلامي من دون المساس بهوية المجتمع "فتاريخ الأمم والشعوب يبين لنا بجلاء أن المجتمعات التي أولت اهتماما كبيرا للتربية كأداة فعالة في بناء حضارتها، وترسيخ ثقافتها بما في ذلك مختلف العلوم والفنون والآداب بها،هي تلك المجتمعات التي انتعشت فيها الحضارات وبلغت ذروتها من العطاء الفكري والاجتماعي والعلمي."[2]

[1] - حسن نفي ...وآخرون، الفلسفة في الوطن العربي في مائة عام: أعمال الندوة الفلسفية الثانية عشر التي نظمتها الجمعية الفلسفية المصرية بجامعة القاهرة، مركز دراسات الوحدة العربية، [د.ت]، ص. 183.

[2] - محمد لبيب النجيحي، الأسس الاجتماعية للتربية، مرجع سابق، ص.53.

من العوامل الواجب الحرص على أخذها بعين الاعتبار في الفلسفة التربوية لأي مجتمع أن يتلاءم الفكر النظري مع الواقع الاجتماعي،وهذا ما عمل محمد عبده على تحقيقه في مشروعه التربوي الهادف إلى إقامة مشروع تربوي إسلامي قادر على بناء حضارة تمتلك تكنولوجيا التطور، ومن جهة أخرى محافظة على جذور مقوماتها الضاربة في أعماق التاريخ.

الأساس العقائدي:

أول هذه الأسس التي ارتكز عليها مشروعه التربوي، هي الأساس العقائدي، فمحمد عبده في كل خطواته الإصلاحية يعتبر عقيدة الإسلام هي المنبع الذي نأخذ منه قيمنا، فعقيدة الإسلام هي بالأمس التي أقامة حضارة دانت لها البشرية جمعا، فالجمود والتخلف والتبعية مرده الابتعاد عن تعاليم الدين الصحيحة، لذلك فالإمام يقول: فمن "ظن أن اسم الوطن و مصلحة البلاد، وما شاكل ذلك من الألفاظ الطنانة يقوم مقام الدين في إنهاض الهمم وسوقها إلى الغايات المطلوبة منها، فقد ضل سواء السبيل."[1] وعندما يتكلم الإمام عن التربية التي يدعوا إليها وعن مضامينها، فإنه يدعونا إلى تأمل أوضاع التردي التي يعاني منها المجتمع العربي والإسلامي رغم ما تتوفر عليه من نعم الطبيعة التي لم تبخل علينا بشيء في أرجاء أراضي الأمة، "فإنا لو رجعنا إلى ما يشكوه كل منا، نجد أمرا وراء الجهل بالصناعات وما يتبعها.إن الصناعة لو وجدت بأيدينا نجد فينا عجزا عن حفظها، وإن المنفعة قد تتهيأ لنا ثم تنفلت منا لشيء في نفوسنا؛ فنحن نشكو ضعف الهمم، وتخاذل الأيدي، وتفرق الأهواء، والغفلة عن المصلحة الثابتة...فمطلوبنا هو علم

[1] - محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.1، للإمام الشيخ محمد عبده، تحقيق وتقديم محمد عمارة، ط.2، ج1، دار الشروق، مصر، 2006 ، ص. 158.

وراء هذه العلوم...فما فقدناه هو التبحر في آداب الدين."[1] لأن معرفة تعاليم الدين الصحيحة ورسوخها في نفوسنا تولد الهمم العالية،التي نبلغ بها التطور الذي بلغته الدول الغربية من دون الرجوع إلى علومهم، لأن تاريخنا يحتوي على علوم زاخرة في كتب الأولين من المسلمين نكون بها في غنى عن الأخذ من الغرب الذي يذلنا. وهذا لا يعني أنها دعوة للانغلاق، وإنما هي دعوة لشحذ الهمم.

تخلف المسلمين اليوم «لا يصح أن ينسب إلى الإسلام» وإنما الداء يرجع إلى «علة عرضت على المسلمين عندما دخلت على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام في أفئدتهم» ولعل السبب الرئيسي على حد تعبير الإمام محمد عبده الذي أدى إلى دخول الشوائب على عقيدة المسلمين مرده إلى السياسة «تلك الشجرة الملعونة» وإتباع الهوى وخطوات الشياطين. فقد أخطأ خليفة في السياسة «ظن أن الجيش العربي قد يكون عونا لخليفة علوي...فأراد أن يتخذ له جيش أجنبيا من الترك و الديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه، ويصطنعها بإحسانه، فلا تساعد الخارج عليه...هنا استعجم الإسلام وانقلب عجميا » وهذا ما نجر عنه البعد عن الإسلام وسارت الدولة في قبضة العجم «ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الإسلام، والقلب الذي هذبه الدين» بل وصل الأمر بهؤلاء الأعاجم أن أخلطوا العقيدة الإسلامية [2]

فهو يثني على الدين الإسلامي وعلى مبادئه البريئة من الجمود في مقابل الذين أخطئوا فهمه أو تعمدوا الإساءة إليه ، فيقول: "لم أر كالإسلام دينا حفظ أصله، وخلط فيه أهله ولا مثله سلطانا تفرق عنه جنده، وخفر عهده، وكفر وعيده

[1] - المصدرنفسه، ص. 159.

[2] - محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.3، مصدر سابق، ص.338-339.

ووعده، وخفي على الغافلين قصده، وإن وضح للناظرين رشده، أكل الزمان أهله الأولين، وأدال منهم خشارة من الآخرين لا هم فهموه فأقاموه، ولا هم رحموه فتركوه...وهم ليسوا منه في شيء، إلا كما يكون الجهل من العلم، والطيش من الحلم، وأفن الرأي من صحة الحكم."[1]

يدعوا محمد عبده لتربية تستند إلى مبادئ الدين، فهو عندما يحلل نموذج من نماذج العالم العربي والإسلامي، نجده يتكلم عن موطنه مصر ليقول:أن "أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين، حتى صار طبعا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت ويضيع تعبه، ويخفق سعيه."[2]

إذن تعد العقيدة الدينية من بين أهم المرتكزات الأساسية للإصلاح في نظر محمد عبده، من زاوية أن أفراد المجتمع تربوا ونشئوا عليها منذ الصغر، فأصبحت شيئا من كيانهم لا يمكن التخلي عنه، وكل إصلاح يهمل هذا العامل في المجتمع العربي والإسلامي، فإنه يبذر بذورا في غير محلها، مصيرها الإخفاق.

الأساس اللغوي:

ثاني هذه الأسس، أساس اللغة، لأن محمد عبده يقول أن صوته ارتفع بالدعوة لأمرين عظيمين والأمر الثاني منها قال فيه: "إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير، سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشأ أو مترجما من لغات أخرى، أوفي المراسلات بين الناس."[3]

---

[1]- المصدر نفسه، ص.339.
[2] - محمد عبده،الأعمال الكاملة، ج.1، مصدر سابق، ص. 160.
[3]- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.2، مصدر سابق، ص.312.

فعندما يعدد محمد عبده أسباب جمود المسلمين، فإن أول جناية لهذا الجمود، "كانت على اللغة العربية وأساليبها وآدابها. فإن القوم كانوا يعنون به الحاجة دينهم إليها. أريد حاجتهم في فهم كتابهم إلى معرفة دقائق أساليبها، وما تشير إليه هيئة تراكيبها. وكانوا يجدون أنهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عربا بملكاتهم، يساوون من كانوا عربا بسلائقهم."[1] فلما بدأ العجز يدب في الناطقين باللغة العربية أصبح الذي يأخذ من سلفه يأخذ عنه لغة هشة، وهذا ما أدى إلى "قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم،واكتفوا بأخذ حكم الله منه دون أن يرجعوا إلى دليله."[2] فنظرا للعجز عن الفهم الصحيح للغة فإنهم يضلون بل يصل بهم الأمر إلى تكفير من لم يأخذ بفتاوى المتقدمين الذين ظن المسلمين بهم العصمة، وهذا كله بسبب الجمود وعدم القدرة على الفهم الصحيح لمعاني اللغة العربية "وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر في كلام من يليه، هو غير مبال بسلفه الأول بل ولا بما كان يحف بالقول من أحوال الزمان. فهو لا ينظر إلا على اللفظ وما يعطيه فتسقط منزلته في تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها."[3] فكان ذلك حائلا لفهم كتب الأولين والاستفادة من علومهم، بل يكفيك من ذلك أنه إذا تكلم الإنسان "بلغته، لغة دينه وكتابه وقومه،لا يجد من يفهم ما يقول،وأي ضرر أعظم من عجز القائل عن أن يصل بمعناه إلى العقول؟!"[4]

ويصل بنا العجز إلى حد أن العارف إذ ما أراد تفهيم السائل يكون عاجزا عن تفهيمه ومرده لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة، فهو إذا سئل

[1] - محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.3، مصدر سابق، ص. 342.
[2]:- المصدر نفسه، ص.342.
3-المصدرنفسه
[4] -المصدر نفسه

يقرأ كتابا أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم إفهامها وذلك للحرج الذي وضع فيه نفسه فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم، فإذا قلت للعارف تعلم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنتفع بعلمك قال: سبحان الله! هل فعل ذلك أحد من المشايخ؟ ولو أبعد بنظره لوجد قدماء المشايخ فعلوه وبالغوا فيه.[1]

وعندما تتعلق النفس بعقيدتها الصحيحة، فعليها أن تبحث في ما خلفه الأجداد، من العلم الذي فرطنا فيه، فلا تهمنا قشور الحضارة الغربية، فهي زوائد يمكن التخلي عليهاأنما يهمن ما نحن بحاجة إليه، ولا يتسنى لنا الاستفادة من كتب من قبلنا، إلا إذا اتقنا لغة من تقدمنا أحسن إتقان يمكن معها الرجوع إلى مصدر المسلمين والكتاب المنزه عن الخطأ أي القرآن الكريم "وكما وصل إلينا وجودنا بالتناسل عن آبائنا، فلتصل إلينا حياة نفوسنا بما أورثنا من علومهم وآدابهم، ولا يتيسر لنا ذلك إلا بعلم اللغات التي أودعوها معارفهم وهي لدينا لغتان: التركية والعربية."[2]

اللغة عامل أساسي في عملية الإصلاح أولى لها محمد عبده مكانة في مشروعه الإصلاحي باعتبارها همزة وصل بيننا وبين الفهم الصحيح لتراث أجدادنا، بل أكثر من ذلك فهي تبعدنا عن التقليد، الذي نسف بكل خطوة للتقدم،نظرا للوهم الذي يتلبس على طالب الحق من الخطأ في الفهم الصحيح لما أفتى به العلماء الأولون، والفهم الصحيح لتفسير القرآن الكريم حسب مقتضيات العصر،بدون المساس بقدسية القرآن.

[1] - محمد عبده، الإسلام والنصرانية ، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر:[د.ت] ، ص.96.
[2] - محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.1، مصدر سابق، ص.158.

الأساس الطبقي في تقسيم أصناف المجتمع:

ننتقل الآن إلى أساس آخر أقام عليه محمد عبده إصلاحه التربوي، وهي الطبقية في المجتمع فهو ضمن مشروعه التعليمي لإعداد أفراد المجتمع، فقد قسم أفراد المجتمع إلى ثلاث طبقات، تبعا لوضعهم الاجتماعي، فقدم لائحة لإصلاح التعليم العثماني، وبعد أن يتكلم عن الحاجة إلى العلوم الدينية، لتقوية العقيدة الصحيحة فإنه يقول: "هذا إجمال ما إليه الحاجة من العلوم الدينية، إلا أن كل واحد من منها مقول على المبدأ والتوسط والنهاية وكل منها غذاء لطبقة من الناس لا قوام لحياتها الدينية والسياسية إلا به.فلهذا نقسم طبقات الناس إلى ثلاث، ونعين لكل واحدة منها حدا من هذه الفنون."[1]

أعطى محمد عبده لكل طبقة من طبقات المجتمع التعليم الذي يناسبها،لكن هذا لا يعني أن الإمام أغلق الباب بين الطبقات التي حددها وإنما فتح الباب للفرد الذي يثبت مقدرته، فهو لا يريد بهذا التقسيم "منع الآحاد من كل طبقة أن يطلبوا الكمال الذي خص به من فوقهم، ولكن الغرض تحديد ما يلزم لكل واحدة،ثم إن الله لا يضيع أجر العاملين."[2]

فالطبقة الأولى هم أولاد المسلمين الذين يوقف بهم عند مبادئ الكتابة والقراءة وشيء من الحساب، ثم بعد ذلك ينصرفون إلى أعمالهم اليومية من زراعة وتجارة، والمطلوب منهم طاعة الدولة،ولابد من العمل على تقوية نزعتهم والولاء للدولة والعقيدة السليمة ويوثروها على أنفسهم،لذلك يقدم الإمام الخطوط العريضة لبرنامجهم التعليمي الديني والذي يكون على النحو التالي:

[1] - محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.3، مصدر سابق، ص. 81

[2] - المصدر نفسه، ص. 81.

- كتاب مختصر في العقائد الإسلامية المتفق عليها عند أهل السنة، بدون التعرض للخلاف بين الطوائف.
- كتاب مختصر في الحلال والحرام من الأعمال،وبيان الأخلاق الخبيثة، والصفات الطيبة، والتنبيه على البدع المستحدثة.
- كتاب في التاريخ، مختصر يحتوي على مجمل سيرة النبي، وأصحابه، من وجه ما يتعلق بالأخلاق الكريمة...وفداء الدين، مع الإلمام بالسبب في تسلط الإسلام على الأمم في وقت قصير مع قلة أهله، وذكر تاريخ الخلفاء العثمانيين.

ثم ينتقل إلى الطبقة الثانية واللذين يحددهم بأنهم الذين ينتظمون في المدارس السلطانية والشرعية والملكية والعسكرية والطبية، «والذي يهم الدولة منهم أن يكونوا أمناء لها، حفاظا لما استحفظوا عليه من شئونها – الجندي منهم حامل لنفسه على ذباب سيفه حتى ينتصر أو يموت.والمحكم منهم يفصل المخاصمات قابض على ميزان العدالة ناظر إلى كف النظام يرجح ما رجح فيه ويسقط ما سقط منه، فهو يتحرى الحق ويحكم به أو يموت.والمولى منهم آمر في إدارة أمور الرعية...يلزم الحدود...إلا أن يحول دون ذلك الموت فيموت» فهذه الطبقة تزيد على الطبقة الأولى بعد التعليم الديني بالكتب التعليمية التالية:

- كتاب يكون مقدمة للعلوم، يحتوي على المهم في فن المنطق، وأصول النظر، وشيء من آداب الجدل.
- كتاب في العقائد، يوضع على قواعد البرهان العقلي والدليل القطعي، مع التزام التوسط ومجانبة الخلاف بين المذاهب وتفصيل شيء من فوائد العقائد الإسلامية في تقويم المعيشة المدنية، فضلا عن السعادة الأخروية.

- كتاب يفصل فيه الحلال والحرام وأبواب الفضائل والرذائل وتوضيح لأسباب الأخلاق وعللها وآثارها على وجه يقنع به العقل وتطمئن به النفس.
- كتاب تاريخ ديني، يحتوي على تفصيل سيرة النبي صحبه والفتوحات الإسلامية وما جاء به الخلفاء العثمانيون من ذلك ثم تبسيط أسباب التقدم الإسلامي بأدق مما كان في السابق.

أما الطبقة الثالثة من أبناء المجتمع: وهم من الذين عقلوا ما تقدم من كتب الطبقتين السابقتين، وكشف الامتحان امتيازهم في فهمها حتى يكونوا عرفاء الأمة، وهداة الملة وأما ما تحتاج إليه هذه الطبقة من الفنون دون التعرض لأعيان الكتب يكون من بينها على النحو التالي:

- فن تفسير القرآن، وهو أهم ما يحتاج إليه، ليقرأ القرآن تفهما وتطلبا لما أودع الله فيه من الأسرار والحكمة، والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام.
- فنون اللغة العربية، من نحو وصرف ومعان وبيان وتاريخ جاهلي وما يتبع ذلك ليتمكن من فهم القرآن والحديث.
- فن الإقناع والخطابة، وأصول الجدل لغرض التمكن من تقرير المعاني .
- فن الكلام، والنظر في العقائد، واختلاف المذاهب.

ثم يبين الإمام مقصده من ذلك التعليم الطبقي بأنه « إشراب القلوب حب الدين وتوقيره وجعله الغاية المطلوبة من كل عمل ».[1]

[1]- الكلام عن طبقية التعليم مقتبس من: محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.3، مصدرسابق، ص.81 إلى ص.. 86.

يدافع محمد عبده عن مشروعه بقوة، فكل الوسائل لتحقيق المشروع من السهل توفرها إنما المهم قبولها من طرف السلطة، فيمكن للكتب المحددة لكل طبقة أن تحضر، ويمكن إيجاد الرجال الذين يصلحون لكل طبقة، ويمكن للطبقة الثالثة أن تستوفي العلوم المحددة لها مع كثرتها بطول الزمان، وأما المصاريف «فإنه متى وجد ولو قليل من الرجال العارفين الصادقين » فإن الأموال يمكن توفيرها «من أيدي المترفين من أهالي المملكة العثمانية » فلا يجب اليأس وإنما العزيمة والعمل هي بداية نجاح الإصلاح ولو أخفقنا مرات.[1]

أثر العادات والتقاليد في عملية الإصلاح:

كذلك من بين الأسس التي كانت ضمن منهجه الإصلاحي،الاهتمام بالعادات والتقاليد والتعامل معها بحكمة في الإبقاء ما يصلح منها، والقضاء تدريجيا على العادات المخالفة للدين. فهناك من يظن أنهم إذا أكثروا من الدراسة الفنون الأدبية ومطالعة أخبار الأمم، وأحوالهم الحاضرة تنبعث فيهم رغبة الإصلاح على مقتضى الذي وصلوا إليه «ويرغبون أن يكون نظام الأمة وناموسها العام على طبق أفكارهم » لأنهم يرون بأن أفكارهم هي سبيل سعادة الأمة، «وإنهم وان أصابوا طرفا من الفضل،من جهة استقامة الفكر في حد ذاته،وارتفاع الهمة، وانبعاث الغيرة، لكنهم أخطؤوا خطأ عظيما» لأن الخطأ الذي وقعوا فيه راجع ليس إلى طبيعة أفكارهم من حيث صحتها وخطئها، وإنما الشيء الأخطر من ذلك والذي يغفل عنه الكثير من المصلحين «طبيعة الأمة التي يريدون إرشادها » لأنهم لم يضعوا في الحسبان «قابلية الأذهان، واستعدادات الطباع للانقياد إلى نصائحهم، واقتفاء

[1] - محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.3، مصدر سابق، ص.90.

آثارها»لأنه من الواجب على المصلح أن يضع في الحسبان أخلاق تلك الأمة وعاداتها.[1]

فعندما يحاول الواحد منا أن يبث فكره عند رجل معين «هل يمكنه أن يبدل بها غيرها بمجرد إلقاء القول عليه؟!» فهذا غير ممكن لأنه من تعود على شيء مدة طويلة من الزمن فإنه يصعب تغيير ذلك بين عشية وضحاها «إن الذي تمكن في العقل أزمانا، لا يفارقه إلا في أزمان» لذلك على الداعي للتغيير أن يتدرج في التغيير «وذلك لا يكون في آن واحد ولا بعبارة واحد» وإلا فإن المقصد الذي ينشده المصلح مآله الفشل «بل ربما جره نصحه إلى الضرر بنفسه. تلك هي الحالة المشهودة التي لا ينكرها أحد» ونجاح الفكرة التي نريد أن نبلغها للآخر لن يكتب لها النجاح إلا إذا كان «صاحب ذلك الفكر الفاسد لا يعاشر ولا يخالط في خلال تعليمه إلا مرشده، صاحب الفكر السليم» دون الرجوع لمخالطة صحبه الذين يؤيدون ذلك الفكر الفاسد الذي هو عليه صاحبنا ممن يراد تغيير عوائده إلى عوائد سليمة لا تتنافى مع الدين «وأظن أن هذا يعترف به من مارس الأخلاق والعادات» فالواحد منا إذا تعود على شيء فإنه من الصعب تغيير ذلك الفعل ببساطة، وفي لحظة واحدة.[2]

فمن الحكمة عند معالجة بعض العوائد الفاسدة أن «تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة في عقول أفرادها،ثم يطلب بعض التحسينات فيها لا تبعد منها بالمرة» وبالتدريج فإن اعتادوا هذا التعديل الجديد «طلب منهم ما هو أرقى بالتدريج،حتى لا يمضي زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرقى

[1] - محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.1، مصدر سابق، ص.319-320.
[2] - المصدر نفسه ص. 320-221.

وأعلى» أما إذا لم نتدرج في التغيير فإنك تراهم«يتخبطون في السير، لخفاء المقصود عنهم، وضلال الرأي فيما لم يكن يمر على خواطرهم، فيمكن أن يخرجوا عن حالتهم الأولى، لكن إلى ما هو أتعس منها » وهذا هو حال الأمة الإسلامية التي تتخبط في التخلف والجمود وانقيادها نحو الخرافات والتقليد الأعمى من دون إعمال العقل «ويا عجبا!!هل الشخص الذي توارث العوائد من أبائه وأجداده، ومرن عليها من مهده إلى كهولته، وتعود تفويض مصلحته إلى إرادة غيره يصح أن يطلب منه في زمان واحد خلع جميع ذلك ؟!» ليجيب الأمام انه«لخطأ ظاهر» ليصل إلى بيت القصيد أن الذين «يرمون أن تكون بلادنا، وهي هي ، كبلاد أوربا ، وهي هي، لا ينجحون في مقاصدهم، ويضرون أنفسهم» لأن مشروعهم على أساس غير صحيح .[1]

من الخطأ الشنيع ما يفعله أناس محسوبون على السلطة لم ينظروا للأسباب الحقيقية للتطور فراحوا يقلدون عوائد الغرب«وظنوا أن تقليدنا لعاداتهم، وأخذنا الآن بأفكارهم اليومية، وتشبهنا بهم في الأطوار، كاف في أن نكون مثلهم،وأن استلامنا لتلك العادات وتلقينا لتلك الأفكار أمر غير عسير» إلا أنهم تناسوا السبب الحقيقي للتطور الأوربي، وبأنه «في نفوس الأهالي » لأن الأوربيين بحثوا عن أسباب التطور الحقيقية فقلدوا،ولكنهم قلدوا الأسباب الموصلة للعزة وليست نتائج العزة بل عانوا مشقتها.[2]

الحقوق والواجبات الاجتماعية:من واجب الفرد التعرف على الحقوق والواجبات أي مساعدة الفرد في التعرف على الحقوق والواجبات التي يضعها المجتمع لمواطنيه،

[1] - المصدر نفسه، ص.321-322.
[2]- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.1، مصدر سابق ، ص. 323-324.

فعلى الفرد أن يعرف ماله من واجبات، وما عليه من حقوق. وهذه الفكرة أكد عليها الإمام محمد عبده في توعية المجتمع بأن يتعرف الفرد على ما يتيحه له نظام مجتمعه من حقوق وما عليه تأديته من واجبات، وذلك كله من أجل ضمان انسجام أفراد المجتمع مع النظام الخاضعين له لأنه "من الخطأ، بل من الجهالة أن تكلف الأمة بالسير على ما لا تعرف له حقيقة أو ما يطلب منها ما هو بعيد عن مداركها بالكلية."[1] لذلك فعلى العامة أن تكون على بصيرة من أمرها لمعرفة مصلحة البلاد، وخوفا عليها من تسلط الحكام وتدخل الأجانب،فنحرم من السيادة الوطنية، لذلك "من يريد خير البلاد فلا يسعى إلا في إتقان التربية وبعد ذلك، يأتي له جميع ما يطلبه،إن كان طالبا حقا، بدون إتعاب فكر ولا إجهاد نفس."[2]يقصد محمد عبده أن الداعين للحياة الدستورية قد أخطئوا،لأن التسرع ينجر عنه مآسي لا يمكن التحكم فيها، ومنها تسلط الحكام على المحكومين، وفقدان سيادة الدولة،لذا على الأمة أن تتفقه في أمور دينها ودنياها،ولا يكون ذلك إلا بالتربية والتعليم.

ومن الأسس التي تكلم عنها محمد عبده نجد أيضا الأخلاق،وله فتاويه في المجال الاقتصادي،فقد نبه على التربية الخلقية المستمدة من الإسلام وعلى الفضائل العالية التي يجب الإقتداء بها.

الأساس الأخلاقي:

ففي مجال التربية الأخلاقية، فإنه يدعوا إلى تربية النفوس وتهذيبها لتتعرف على القبائح لتبتعد عنها، وتتعرف على الفضائل لتقتدي بها، ولا يجب الذل للأغنياء

[1]- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.1، مصدر سابق ، ص 50.
[2]- المصدر نفسه، ص. 51.

"لأنه قد ينال بعض المستضعفين وآحاد الناس ومن لا شأن لهم رفعة شأن أو علو مقام، ولكن لا من أسبابه الطبيعة التي سنها الله في خلقه، بل بوسائل التذلل والمداجاة وإظهار العبودية لمن فوقه...لجلب منافع خاصة وتميل الأفكار عن الجادة المستقيمة ...فتنعدم الرغبات في الفضائل."[1]

وجوهر الفضائل الأخلاقية التي يدعوا لها محمد عبده هي رفضه للفلسفة الفردية، وينحاز إلى نوع من الجماعية، فهو يرى في المجتمع جسدا واحدا، ويجب تقديم المصلحة العامة على الخاصة«هي الفضائل التي دونت لها كتب العلماء والحكماء، وأثبتها الصديقون والسياسيون في مؤلفاتهم، ويجمعها طلب النفع الخاص من طريق المنفعة العامة ، أي الوقوف في السعي لكسب المعيشة عند حد ما ينفع الجمعية المعنوية باسم واحد، كمصر أو الشام أو أمريكا أو ينفع لعموم نوع الإنسان ولا يجلب ضررا على أحد من المجتمعين.»[2]

الأساس الاقتصادي:

في المجال الاقتصادي، قال محمد عبده بجواز تدخل الدولة: " فإذا تعصب العمال في بلد، وأضربوا عن الاشتغال في عمل تكون ثمرته من ضروريات المعيشة فيه، وكان ترك العمل يفضي إلى شمول الضرر كان للحاكم أن يدخل في الأمر وينظر بما خول له من رعاية المصالح العامة."[3]

أفتى كذلك في قضية ربح صندوق التوفير، وعن جواز إباحة وضع الأمـــوال في صناديق التوفير بالبريد، وأخذ الفوائد منها، فإذا كانت الربا حرام فكيف يمكـــن

[1] - المصدر نفسه، ص.352.
[2] - المصدر نفسه، ص137.
[3] - محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.1، مصدر سابق ، ص.780.

للفقراء حفظ ما زاد عن دخلهم، فكان من جوابه بإمكان ذلك بمراعاة أحكام شركة المضاربة في استغلال النقود المودعة في الصندوق.[1]

وسئل عن تأمين الحياة عندما كان مفتيا للديار المصرية : وكان نمط السؤال على النحو التالي: ما قولكم دام فضلكم في شخص يريد أن يتعاقد مع جماعة على أن يدفع لهم من ماله الخاص على أقساط معينة ليعملوا فيه بالتجارة، واشترط معهم أنه إذا قام بما ذكر وانتهى أمد الإنفاق المعين بانتهاء الأقساط المعينة،وكانوا قد عملوا في ذلك المال، وكان حيا فيأخذ ما يكون له من المال مع ما يخصه من الأرباح.وإذا مات في أثناء تلك المدة فيكون لورثته أو لمن له حق الولاية في ماله أن يأخذ المبلغ تعلق مورثهم مع الأرباح؟.

فكان جواب محمد عبده أنه إذا كان التعاقد بمثل ما ذكر كان ذلك جائزا شرعا ويجوز لذلك الرجل بعد انتهاء الأقساط والعمل في المال وحصول الربح أن يأخذ.[2]

يتطرق محمد عبده إلى الظلم الاقتصادي،وكيف أن السلاطين والأغنياء يحبون المال إلى درجة أنهم يبخلون به على الفقراء،فهم يهضمون حقوق العامة من الناس، الذين هم بحاجة إليه، بل إن هؤلاء الأغنياء «يدعون إلى بذل قليل من كثير ما خزنوه في صناديق الحديد وما ينفقونه في شهواتهم ولذاتهم وتأييد أهوائهم... فيبخلون بذلك ويرونه مغرما ثقيلا...وأمثال هؤلاء لا يستحقون أن يكونوا من المسلمين»

هناك قضية بالغة الأهمية ضد تركز رأس المال في أيدي قلة من الناس ، بسبب الربا، فهو يعتبر أن استغلال المال بالمال واتخاذ المال وسيلة لكسب المال عن طريق

[1] - المصدر نفسه، ص.786.
[2] - المصدرنفسه، ص.787-788.

استغلال حاجة المحتاجين،من الأسباب الأساسية لتحريم الربا في الإسلام فالإمام يقول عن أسباب تحريم الربا في الإسلام«إن النقدين (الذهب والفضة) إنما وضعا ليكونا ميزانا لتقدير قيم الأشياء التي ينتفع بها الناس في معايشهم. فإذا تحول هذا، وصار النقد مقصودا بالاستغلال ، فإن هذا يؤدي إلى انتزاع الثروة من أيدي أكثر الناس وحصرها في أيدي الذين يجعلون أعمالهم قاصرة على استغلال المال بالمال» وهذا ما يؤدي إلى فقر الفقراء وفحش الغناء لأصحاب رأس المال، لذا من الواجب تحريم الربا، وصرف الزكاة على الفقراء من مال الأغنياء.[1] وهذا تماشيا مع ما دعى به الشارع الحكيم من تحريم صريح للربا.

وفي ختام المقال فإن هذا التحليل جاء ليوضح مدى وعي النخبة من أمثال محمد عبده بالتحديات التي تواجه المجتمع العربي الإسلامي لأنه من طبائع الأمم أنها لا تخضع لمن يباينها في الأخلاق والعقيدة والعادات، ولذلك "جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الأخلاق والعادات والمشارب وإن لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها، فكيف بها إذا حملها ما لا طاقة لها به؟ لا ريب أنها تستنكره، وإن كانت ستكبره، وكلما أنكرته بعدت عن الميل إليه وكلما أنكرته بعدت عن الميل إليه، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريبا تقرب بعضها من بعض، فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب"[2].

ولا ننظر إلى التراث كما ننظر للحداثة، فالتراث عامل أساسي في تكويننا، ولكنه بحاجة إلى تحليل وتقييم وإلى عول البالي عن الطيب، أما الحداثة فتؤخذ عادة

[1] - محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.1، مصدر سابق، ص.139.
[2] - جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى، مرجع سابق، ص. 03

من الخارج. أساس الحداثة العلم والمنهج العقلي وليس نقل منتجات العلم وحدها ما يفي الغرض، هنا يأتي دور المنهج وتمثل العلم[1].

عمل محمد عبده على تربية جيل من المصلحين والمجددين لإعادة إصلاح أوضاع المسلمين وإعادة بعث الأسس الصحيحة للإسلام، وفي إطار دعواته لنصرة الإسلام والدفاع عما ألحق بالإسلام من أنه دين يعيق المدنية، نجد منها مناظرته لفرح أنطون(1874-1922) حول ابن رشد، فكانت المناظرة فرصة للإمام لشرح أبعاد خطابه الفلسفي، «الذي يسعى لتحديد الثوابت والمتغيرات في الفكر الإسلامي ودرء الخلاف بين القديم والجديد والدين والعلم وتحرير الفكر من قيد التقليد، وتخليص الأذهان من الخرافات والأوهام وإصلاح حالة اللغة العربية» دعوته فرصة لتقوية المستنيرين وإضعاف المقلدين، وإعلاء صوت الحق في فهم الدين الفهم الصحيح.

[1] - مجلة المستقبل العربي،عبد العزيز الدوري:تاريخ المشروع الحضاري وتجاربه وتطوره، العدد269، أوت2001، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ص.40.

المصادر والمراجع:

1- إبراهيم ناصر، علم الاجتماع التربوي، ط2، بيروت:دار الجيل،عمان:مكتبة الرائد العلمية،1996

2- الشبيني محمد، أصول التربية :الاجتماعية والثقافية والفلسفية.القاهرة :دار الفكر العربي،2000

3- العبادي، نذيرسيحان، أسس التربية، عمان: دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، دار مكين للنشر والتوزيع، 2006

4- أحمد فؤاد عبد الفتاح، في الأصول الفلسفية للتربية عند مفكري الإسلام،: منشأة المعارف .جلال حزى وشركاه.1982

5- بركات أحمد لطفي، في فلسفة التربية، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1978

6- جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى، تحقيق صلاح الدين البستاني، ،ط3، دار العرب، القاهرة،1993

7- عفيفي محمد الهادي، في أصول التربية:الأصول الثقافية للتربية، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية،1974

8- محمد عبده، الإسلام والنصرانية ، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر د.ت

9- محمد عبده، الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، تحقيق وتقديم محمد عمارة، ط.2، ج1، دار الشروق، مصر، 2006

10- مجلة المستقبل العربي،عبد العزيز الدوري:تاريخ المشروع الحضاري وتجاربه وتطوره، العدد269، أوت2001، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان

11- مرسي محمد منير، فلسفة التربية:اتجاهاتها ومدارسها، مزيدة ومنقحة.القاهرة:عالم الكتب .1993

12- نجار فريد، المعجم الموسوعي لمصطلحات التربية، ط1، بيروت:مكتبة لبنان ناشرون،2003.